٢٦٣

سلمى الحفار الكزبري وإرادة المعرفة

د. عبد النبي اصطيف *

*المكان يبدو غريباً، نعم إنه يبدو غريباً تماماً عندما يتلفّت المرء يمنة ويسرة ولا يجد واحداً ممن يحبهم، فـ «المكان بالسكان»، وهذا ما تعلمناه، نحن أهل الشام، من آبائنا وأجدادنا، و«الجنة بلا ناس ما بتنداس»، وهل يمكن أن تكون دمشق دمشق دون أهلها، وهل يمكن أن تكون دمشق دمشق دون أن نسميهن «نصفنا الأفضل» «**Our better half**»، دون ألفت الأدلبي، وسهام ترجمان، وكوليت خوري، ونجاح العطار، وقمر كيلاني، وسمر العطار، وليلى الصباغ، وطلعت الرفاعي، وناديا خوست، وسلمى الحفار الكزبري، ومهاة فرح الخوري وغيرهن.*



* ناقد وباحث وأستاذ جامعي ومدير الهيئة العامة للكتاب في سورية.
- العمل الفني: الفنان علي الكفري.

نعم المكان يبدو غريباً عندما يفتقد المرء من يهب هذا المكان هويته، وليس من السهل على المرء أن يتلفّت حوله فلا يرى في دمشق سلمى الحفار الكزبري، ولكن هل رحلت سلمى الحفار الكزبري حقاً عن الشام، وهل غابت في يوم عنا وعنها؟ على الرغم من ترحالها المستمر بين القارات دون أن تؤرقها غربة اللسان وهي التي كانت تتقن العديد من اللغات الرئيسية في العالم، ودون أن يغربها بعد المكان وهي التي كانت دوماً تتأسى بـ فيجايا لاكشمي بانديت في حملها «قطعة من سورية نفسها»[1] عندما كانت تبرحها إلى مختلف أنحاء العالم الكبير. لقد كانت سلمى، ولا تزال بالنسبة لي، البعيدة -القريبة، الغائبة- الحاضرة، ومنذ متى كان الأدب غير صرح حي Living Monument، ومنذ متى كان الأديب إلا حياة حاضرة، عضواً فاعلاً في مجتمع من يقرؤه ويحاوره.

وفضلاً عما تقدم، فإن من الصعب على المرء أن يستوعب غياب هذه السيدة الدمشقية المتدفقة حياة ونشاطاً وبخاصة عندما يكونان مفعمين بالسحر، والجمال الآسر بما ينطوي عليه من حساسية مرهفة وذكاء حاد وبديهة برقية وفصاحة عذبة. والحقيقة أنه، وعلى الرغم من عشرات الكتب التي خطها يراع سلمى الحفار الكزبري (شعراً بالفرنسية، ورواية، وقصة قصيرة، وسيراً نسائية متميزة، ومقالات غنية بالمعلومات واللمحات الإنسانية، ونصوصاً سيرية -ذاتية auto- biographical texts)، فإنه ربما كان من الإنصاف القول بأن أكثر الوجوه إثارة وأهمية في هذه المرأة غير العادية هو عنصر الحياة كما يتجلى في سنيّها التي امتدت حتى تجاوزت ثمانية عقود، أو في سيرها التي تنبض بالحياة حتى أن المرء ليكاد يتلمس دفئها في كل سطر يقرؤه عن هؤلاء النسوة اللواتي اختارتهن سلمى لتفوقهن، لأنها تماهت مع كل واحدة فيهن باشتراكها معها في وجه تفوقها بالفعل أو بالقوة. وربما كان هذا هو سر السحر الذي يخالط سير سلمى التي «تنطوي على معان وقيم تهمنا قومياً وإنسانياً» على حد قول مقدم الطبعة الأولى من كتابها «نساء متفوقات» الدكتور قسطنطين زريق الذي يضيف متحدثاً عن مزايا هذه السير فيقول:

«غير أن أهم مزايا هذه السير في نظري هو حس المؤلفة المرهف الذي نفذت به إلى هذه الشخصيات، فجعلتهن ينبضن بالحياة. إن القارئ ليخرج من قراءة كل من هذه الفصول وهو يشعر بقرابة روحية

تربطــه بصاحبــة الســيرة.

فهي مثلــه كائن بشري يكافح ويصــارع -يصــارع ما حوله ومــا يضطــرب في داخلــه- ويسعد ويشقى، ويأمل وييأس، وينجح ويخفق، ويظل في هذا كلــه إنساناً تحركــه المشاعر الإنسانية الأصيلة التي أودعها الله نفســ كل كائن على هذه البسيطــة. ولا فــرق بين أن تكــون السيــدة المتفوقة التي تتحدث عنهــا المؤلفة، عربية أو تكون هنديــة أو شيلية أو بولونيــة، فإنها أولاً امرأة، بل هــي بمعنى أعــم، كما قلت، كائــن إنساني تضطرب نفسه بمثل مــا تضطرب به نفوسنا ويطمح عقله إلى الكشف عن الحقيقة أو إلى تحقيق الحرية أو العدل أو سوى ذلــك من المثل العليا التي تشترك بها البشرية جمعاء.

وفي يقيني أن هذا هو أهم ما نجنيه من الاطلاع على سير الغير: أن تغنى نفوسنا بما عانوا وما خــبروا، وأن تتفتح عيوننا للنور الذي بصــروا، وأن تتولد من هــذا وسواه قرابة روحية بيننا وبينهــم، توسع مداركنا وتعمق مشاعرنا وتجعل حياتنا أغزر نتاجاً وأثمن قيمة وأسمى كياناً(٢)..

وربمــا كان أوضح مؤشــر على عنصر الحياة المتدفقة نشاطاً وألقاً وغنىً وتنوعاً في حياة سلمى الحفــار الكزبري ما يمكن أن يسمــى «إرادة المعرفة» The Will to knowledge لديهــا هــذه الإرادة التــي رافقت صاحبتها حتــى بوأتها هذه المكانة الرفيعة التي بــزت فيها كبار الباحثين من

الأكاديميين المرموقين عندما نالت جائزة الملك فيصل على إنجازاتها في فن السيرة عام (١٩٩٤).

وتتجلى هذه الإرادة في:

• تعلمها اللغة العربية في منفى والدها وصحبه من الوطنيين خلال (عامي ١٩٢٧-١٩٢٨) إلى قرية «أميون» في شمالي لبنان؛

• تعلمها القرآن الكريم على يد شيخة فاضلة في حي أسرتها بدمشق القديمة (حي الشاغور) بعد عودتها من لبنان؛

• دراستها في معهد راهبات الفرنسيسكان بدمشق تسع سنوات أتقنت فيها الفرنسية وتعلمت الإنكليزية فضلاً عن متابعتها دراسة العربية على يد الأديبة الرائدة «مي عجمي» في مرحلة الدراسة الثانوية؛

• دراستها الأدب العربي في منزلها بين عامي ١٩٤٢-١٩٤٥ على يد الأستاذ «أبي الخير القواس»؛

• دراستها العلوم السياسية بالفرنسية وبالمراسلة مع معهد اليسوعيين في بيروت؛

• مطالعاتها في مكتبة والدها العامرة بكتب التراث، والتي كانت تتم تحت إشراف والدها (النائب في البرلمان السوري، والسياسي الوطني المعروف الذي تولى وزارات المالية والداخلية مرات عديدة فضلاً عن تسلمه رئاسة الوزراء عام ١٩٣٩).

• انتسابها إلى المركز الثقافي الإسباني بدمشق ودراستها الإسبانية وإتقانها لها ونيل دبلوم رسمي بذلك؛

• تعلمها المستمر المشفوع بالبحث العلمي الجاد ولاسيما أنها ترى أن «الإنسان يتعلم دائماً، فالعلم بحر والشغف به لذة، وكلما تعمقنا بالدراسة أحسسنا أننا في بدء الطريق»، هذا البحث الذي توجته بكتابها ميّ زيادة: مأساة النبوغ (الذي صدر في بيروت عام (١٩٨٧).

لقد آمنت سلمى الحفار الكزبري أن إرادة المعرفة، بوصفها أبرز مؤشر على إرادة الحياة الحقيقية للإنسان، إنما هي إرادة للحياة، إرادة للحياة الحرة الكريمة التي تسعى إليها الأمة كلها، فكان صوتها لذلك أفصح تعبير عن ضمير هذه الأمة.

الهوامش

١- انظر: سلمى الحفار الكزبري نساء متفوقات، طبعة ثانية موسعة، (دار طلاس، دمشق) ١٩٩٠.

٢- انظر: قسطنطين زريق، «بين يدي الكتاب»، في: سلمى الحفار الكزبري، نساء متفوقات، طبعة ثانية موسعة، (دار طلاس، دمشق، ١٩٩٠) ص ص١٦-١٧).